ندوة

في الندوة التي عقدها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» بالدوحة، مساء الثلاثاء، تناول الباحث البحريني عمر الشهابي، إرث صاحب «مدن الملح» في تحليل ثروة النفط التي خطّت بحبرها جغرافيا المنطقة منذ الاستعمار التقليدي إلى الاستعمار الجديد

الدوحة ـ **محمد هديب**

منذ روايته الأولى «الأشجار واغتيال مرزوق» عام 1973، دشّن الروائي عبد الرحمن منيف (1933- 2004) واحداً من أبرز مسارات الرواية العربية، فضلاً عن كتاباته المختلفة في النقد والفن التشكيلي والسيرة والمراسلات، فاقت في مجموعها ثلاثين كتاباً. لكن الفترة التي أعلن فيها عن نفسه صاحب مشروع روائي في سنّ الأربعين، كان هو ذاته خبيراً لامعاً في اقتصاد النفط بعد نيله درجة الدكتوراه في هذا الحقل من «جامعة بلغراد» عام 1961، وتَرك إرثاً كبيراً من الكتابة التحليلية في هذه الثروة التي خطّت بحبرها جغرافيا سياسية في العالم الثالث منذ الاستعمار التقليدي إلى الاستعمار الجديد. وفي كتابه المُقبل باللغة الإنكليزية، يسعى البحريني عمر الشهابي، أستاذ الاقتصاد السياسي العالمي ودراسات الشرق الأوسط في «جامعة لندن» لمعاينة هذا الجانب المغفل من حياة منيف، وهو ما قدّم من أجله محاضرته، مساء أول من أمس، الثلاثاء، في وحدة دراسات الخليج والجزيرة العربية بـ«المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» بالدوحة، ضمن أولى المحاضرات الشهرية للموسم الجديد بعنوان «النفط والتنمية

المغفل من حياة عبد الرحمن منيف

النفط في التنمية والسياسة

الباحث البحريني عمر الشهابي في الندوة (حسين بيضون/ العربي الجديد)

في فكر عبد الرحمن منيف». وسيكون منيف واحداً ممن يتضمنهم الكتاب المُنتظر، إضافة إلى آخرين تناولوا تاريخ الاقتصاد السياسي في الخليج العربي ومنهم عبد الله الطريقي، وعبد الرحمن النعيمي، وعلي خليفة الكواري، ومحمد عبيد غباش، وخلدون النقيب.

وعبد الرحمن منيف بحسب ما يذهب إليه المحاضر لم يكن لديه دور في صناعة النفط، إنّما كان محلّلاً ذا قضية أساسية تنقد النظام الاقتصادي العالمي والعلاقات الاستغلالية والتبعية والنظام غير المتكافئ بين البلدان الصناعية والنامية والحاجة إلى نظام اقتصادي دولي جديد قائم على التعاون والسيادة. وضع الشهابي أمامه ثلاث حقب استناداً إلى كتابات منيف منذ بداية القرن العشرين إلى أوائل السبعينيات والأخيرة كانت في نظر منيف حاسمة لجهة إعادة تنظيم العلاقات بين الولايات المتحدة والوطن العربي والعلاقات العالمية على نطاق أوسع. وهذه السبعينيات المفصلية التي مرّ عليها خمسون عاماً، وبالتالي خمسون على كتابات منيف، هي الحقبة الثالثة تبعاً لسيرورة البحث عند منيف، والتحقيب التاريخي لا بدّ أن يؤسّسه منيف على مفاصل تاريخية ثلاثة منذ ما قبل الحرب العالمية بقليل حتى السبعينيات، واستفاد الشهابي على الأغلب من كتاب صغير بعنوان «مبدأ المشاركة وتأميم البترول العربي» نشره منيف عام 1973 في أثناء وجوده في بيروت، ثم الأعداد الشهرية لمجلة «النفط والتنمية»، التي صدرت في بغداد وكان يتولى رئاسة تحريرها بدءاً من العدد الأول عام 1975 وانتهاءً بعدد السادس من السنة السادسة في آذار/ مارس 1981، حين غادر العراق في خضم الحرب العراقية الإيرانية. والمجلة التي استعار الشهابي منها عنوان محاضرته كانت الأكثر انتشاراً في الوطن العربي بعد توقف مجلة «نفط العرب» التي كان يترأسها السعودي عبد الله الطريقي، وشعارها «نفط العرب للعرب». أما شعار مجلة «النفط والتنمية» التي تشارك فيها قوميون وشيوعيون، فكان «من أجل فكر علمي ووطني في قضايا النفط والتنمية من أجل تعميق وعي الجماهير ومشاركتها».

> عرضَ مفاصل تاريخية ثلاثة من تحليلات منيف لثروة النفط

حقبة الامتيازات

ولدينا بحسب ما استخرجه المحاضر من قراءة تراث منيف الحقبة الأولى، وهي: «حقبة الامتيازات النفطية»، وتبدأ من قبل الحرب العالمية الأولى إلى بداية الخمسينيات، وأكثر ما شغل منيف كان فهم العلاقات التي شكلت الجغرافيا السياسية للنفط، وبخاصة في «الشرق الأوسط» من طرف والقوى الغربية من طرف آخر. فالنفط عند منيف كان يفترض أن يتمتّع بقدر كبير من الإمكانات لتحسين أحوال الوطن العربي، بيد أنه كما نظر منيف كان لعنة على هذا المنطقة، وسبباً لاستغلالها من القوى الخارجية، ما نشر ظروفاً اقتصادية وسياسية متخلفة حسب تعبيره. وبالتحديد، لاحظ المحاضر أن الرأسمالية والاستعمار وشكل العلاقات العالمية للنفط جعلوا منيف يركّز في هذه الحقبة على فهم دور الولايات المتحدة ضمن نظام الامتيازات النفطية الذي كان السبب الرئيسي في دخول الولايات المتحدة إلى المنطقة، بوتيرة متصاعدة مع انتهاء الحرب العالمية الأولى. وحسب ما خلص إليه المحاضر في هذه الحقبة التي انكبّ منيف على تشريحها، فإنّ المصالح التجارية، ولا سيّما الترابط بين رأس المال المصرفي والصناعي، هو ما دفع شركات النفط إلى التوسّع العالمي، ضمن مصالح تجارية يتقاطع فيها منيف تقريباً مع طروحات لينين في كتاب «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية»، مع اختلاف في المآلات عنده، إذ لا يفضي التنافس الإمبريالي إلى حرب، بل إلى تقاسم مناطق النفوذ والأسواق. والمسألة ببساطة يمكن اختزالها بأن فعلياً لم تكن هناك سوق نفطية في العالم، بل شركات إمبريالية تستخرج وتنقل وتكرّر وتحدّد السعر وتعطي مبلغاً مقطوعاً من الأرباح لحاكم المنطقة وقتذاك. وعليه كما واصل الشهابي قراءته لم تكن الامتيازات عند منيف فقط الإطار القانوني الذي ينظّم استغلال الشركات للبلدان المُنتجة، بل تهدف إلى إقامة أنماط من الحكم والعلاقات السياسية والاقتصادية لها طابع التبعية الكاملة لدول الشركات، ما جعل البترول سبباً في شقاء هذه البلدان وانتقاص حريتها.

حقبة تقاسم الأرباح

وفي المرحلة الموالية والمحورية التي فحصها منيف كان تأميم البترول في إيران عام 1952، وإطاحة حكومة محمد مصدق عام 1953 اللحظة المحورية، إذ لم تعد الامتيازات بشكلها القديم مناسبة في نظر العديد من الحكومات الوطنية، ما استلزم البحث عن شكل جديد، بينما استمرت شركات النفط في معظم الحالات في استغلالها ولم تلجأ لتقييد دقيق لمصالح الشعوب والدول المنتجة، ما عجّل بانفجار الإطار القانوني، الذي كان ثابتاً حتى تلك اللحظة. بالطبع فشل تأميم النفط في إيران بعد الانقلاب الذي دبّرته المخابرات الأميركية والبريطانية على مصدق، لكنّ الأهم أن ما حدث آذن بتحوّل كبير، حيث قبلت الشركات بمبدأ تقاسم الأرباح مناصفة مع الدول المُنتجة، وأصبح هذا معياراً نفطياً في «الشرق الأوسط» خلال العشرين سنة التالية، بينما كانت الحكومات في حقبة الامتيازات تنتظر شيكاً من الشركة النفطية كل ثلاثة أشهر. وقال الشهابي إن منيف رأى أن الشركات الغربية هي التي دفعت هذا التحوّل إلى الأمام، فهي لحاجتها الاستغلالية بعيدة المدى رأت أن تقاسم الأرباح قلّل الحاصل المالي الضخم الذي كانت تستولي عليه في حقبة الامتيازات، بيد أن التقاسم حلّ أفضل لدرء محاولات التأميم المتوقعة.

عام النفط العربي

بعد انتشار حركات التحرر في العالم الثالث، ومنها الوطن العربي وصولاً إلى مطلع السبعينيات، كان النفط المنتج عربياً يزيد على نصف ما يُنتجه العالم. وهنا تأتي اللحظة المحورية في الحقبة الثالثة، حين فرضت حكومة معمر القذافي في ليبيا من جانب واحد شروطاً جديدة للتسعير، وبحلول 1972 كانت الجزائر وليبيا والعراق قد أممت صناعة النفط، بل اتسعت التأميمات لتشمل دول الخليج. واستعرض المحاضر افتتاحية مجلة «النفط والتنمية» التي كتبها منيف بعنوان «تأميم النفط بداية عصر جديد»، معتبراً إياه «يوماً خاصاً ومميزاً للأمّة العربية»، وفي هذا التحوّل خلقت السوق النفطية مع نهاية السبعينيات، إذ بات النفط سلعة تجارية غير احتكارية يحصل عليها المستهلك باستمرار وبسعر عادل. وعند منيف، كما كتب في عام 1977، فإنّ التغيير الجذري يشير إلى ثالوث أوبيك التي تأسّست عام 1960 وحرب أكتوبر والتأميم، أثبت أنّ العلاقات النفطية دخلت حقبة جديدة. ولطالما كان موضوع التبعية الشغل الشاغل لمنيف، ومعه في ذلك الوقت نخبة من المحلّلين والمفكرين، من بينهم: المصري سمير أمين، الذي كان يكتب في مجلة «النفط والتنمية»، وهو أحد المشتغلين الكبار في نظرية التبعية. ولأنّ النفط كان المصدر الأساسي للاستعمار والتدخل في أنظمة الحكم، كان منيف ينظر من زاويته إلى أن الأمة العربية وحدة جغرافية واحدة بين منتجي النفط وغيرهم، ولذا ينبغي تشجيع التكامل وحركة الأموال والبشر والتجارة، التي كانت جميعها في مستوى منخفض وما زالت «وربما أصبحت أسوأ الآن» في استطراد للمحاضر. ومع كل ما دافع عنه منيف وتبنّاه خلال عقدين من العمل خبيراً ومحلّلاً في اقتصاد النفط، لم يكن، كما يوضّح المحاضر، بعيش أوهاماً في ظلّ قوى مضادة على رأسها أميركا التي سعت للاحتواء الاقتصادي من خلال السيطرة على مصادر الثروة في البلاد المنتجة وربط اقتصادها بالاقتصاد الأميركي وإقامة علاقات تؤدي بالضرورة إلى التبعية.

وعرض الشهابي على الشاشة فقرة مما كتبه منيف نهاية السبعينيات تفيد بأن «إسرائيل» أداة أميركا «لتأديب المنطقة وإخضاعها، ولكنّها ليست الأداة الوحيدة. ومن هنا تظهر الحاجة إلى ضرورة خلق حالة من الانسجام بين مجموع هذه الأدوات، ما يتطلّب إقامة جسور بين إسرائيل وهذه الأنظمة، لضمان مستقبل الأطراف الثلاثة معاً: أميركا وإسرائيل، والأنظمة». ولدى مغادرته العراق مع بدء الحرب العراقية الإيرانية، أشار المحاضر إلى فترة تشاؤمية عند منيف الذي لطالما حذّر من وصول التسليح مديات بعيدة مع انقسامات إقليمية تتسع وتبلغ ذروتها إلى صدام تسبّب في هزيمة أي أمل للتعاون لإنشاء نظام اقتصادي عربي.

ترك منيف انخراطه المباشر في حقل النفط، وتفرّغ كلياً لكتابة الرواية، لأنّه رفض أن تتحوّل مجلة «النفط والتنمية» إلى بروباغندا للعراق في حربه مع إيران، غير أن هذا الاستخلاص الأوّلي واجه رأياً أولياً أيضاً من الباحث العراقي حيدر سعيد، إذ قال إن تولّي منيف رئاسة تحرير المجلة كان إبّان تحالف حزب البعث مع اليسار، ضمن ما يعرف بـ«الجبهة الوطنية والتقدمية» وخروجه من العراق قد يكون بقمع هذا التيار مع صعود صدام حسين في سلطة الحكم.

الفترة التشاؤمية وكتابة الرواية

في ندوة «النفط والتنمية في فكر عبد الرحمن منيف»، أشار المحاضر البحريني عمر الشهابي إلى فترة تشاؤمية عند الكاتب السعودي بدأت مع الحرب العراقية الإيرانية، إذ لطالما حذّر من وصول التسليح مديات بعيدة مع انقسامات إقليمية تتسع وتبلغ ذروتها إلى صدام تسبّب في هزيمة أي أمل للتعاون لإنشاء نظام اقتصادي عربي. ربّما هذا ما دفع منيف، فيما بعد، إلى ترك انخراطه المباشر في حقل النفط والتفرّغ كلياً لكتابة الرواية.

شعر

بابٌ وحيدٌ يُفتح قبالة البحر

حجرٌ يرثي حجراً

عاشور الطويبي

جبل نفوسة

يتشبّث بظلّ شمس تتعجّل في الرحيل
ماذا يفعل ذلك الرجل متّكئاً على حجر
عيناه مغمضتان
يداه مسبلتان فوق غبار
في ساحةٍ عبرها جنود الروم والوندال؟

ماذا تفعل تلك الحمامة بريشها الأسود
تضع منقارها على بياض كثيف؟

لماذا الهواء ساكنٌ؟
لماذا لا صوت ولا صدى؟

■■■

عنقود عنب على حجر،
شهوة استدارة حنظلة تحدّق في حمامة حمراء
لا يخدع سرابُها غير عابرٍ مسّه عطشٌ شديد
أو سرب قطا لم ينم الليل

■■■

أنفاس القهوة الساخنة تعلو
تلمس أجنحة الصقور المعلّقة على الجدار
«كلّ واحدٍ يتبع خطاه» قال العجوز الجالس عند الباب
«كلّ واحدٍ يحمل قلبه على كفه» قالت صانعة الجبن
لكنّ الشمس التي دخلت من النافذة كانت تتبع
أثر غبار قديم
أثر أحزان عظيمة

■■■

هكذا يستريح الرجل منحنياً على حجر
في مقبرة في مدينة الآلام

هكذا يستريح الماء في كأس تترنّح على
يد امرأة
في مقبرة في مدينة الآلام

هكذا يستريح الوقت في نهار يكاد يرحل
في مقبرة في مدينة الآلام

■■■

تعال، أسقيك كأساً مليئة بالشجن
هل تقدر روحك على حملها؟!
لو نظرتَ إلى أعلى الشجرة ترى
أين تولد النغمات والريح التي تحملها
لو نظرتَ إلى حيث ينبض قلبك ترى
خياماً ترتعش على وتر مشدود

هل ترى هذه المسامير على الجدار؟
كلّ واحدٍ منها صدى شهقةٍ أو رعشة روح
كلّ واحدٍ منها قلبٌ مكسور
يا لشقاء الناس،
يعلّقون قلوبهم على جدار!

■■■

من داخل القفص
ترنو الطيور إلى الجالس على حجر
الجالسُ على حجر
يرنو إلى ماء يسيل من أعلى الشارع
الشارعُ
يرنو إلى سماء عالية داكنة

أسيٌ مهيبٌ يفيض
على الضفّتين

■■■

مَن يسكن الحجر؟!
الليل والنهار يسكنان الحجر
مَن يؤنس الحجر؟!
كائنات البرّ والبحر
مَن يقتل الحجر؟!
يدٌ تقول أنا يد الله!

■■■

الحجر هذا الذي
يجلس ويقف
ينام ويطلق الصرخات
قد يكون بوّابة للنور
قد يكون بوابة للظلمات

■■■

إلى أين تذهب همهمات بائع السمك؟
لقد خطفتها أمواج البحر
ثم رمتها على رمل لا يعرفها
فنبتتْ أشجار عوسج ونخل وتفّاح
كلّما سقطت ثمرة،
تقلّبتْ موجة في بيتها

■■■

هل رأيت في حياتك حجرا يرثي حجرا؟!
حجراً يقبّل حجراً
حجراً يذبح حجراً
حجراً يبيع حجراً
رأيتُ حجارة جُنّت
حجارة تغنّي في الزقة والشوارع
نعم، لقد رأيت حجراً يرثي حجراً

■■■

ماذا تقول النخلة لزير الماء؟
أنت الشمس وأنا الظلّ
أنت الصوت وأنا صدى الصوت
أنت الجرح وأنا الطمأنينة
أنت الدائرة وأنا النقطة
أنت ما تريد وأنا ما أريد

■■■

لن تملّ المرأة من جلستها
لن يرجع السكّرُ إلى عنقود العنب
لن ترتعش اليدان تمدّان شهوات العشب
على نهود الأرض

■■■

صورة الرجل في الإطار الخشبي قلقة
لا يعرف كيف يمدّ يده إلى يد هاتف قديم
كيف يقول الكلمات التي أثقلت قلبه
بالأحزان

■■■

ساحة الشهداء مليئة
الموتى يقفون طوابير في أيديهم أعلام بيضاء
لقد غادرت السفينة المرفأ تدعمها الريح
بابٌ يُفتح قبالة البحر
يدخل القمر وتدخل الناحيات
يدخل صانعو الأصفاد والمراجل
يدخل الخبّازون وقاطعو الطرق
يدخل الجبناء والعملاء
بابٌ وحيدٌ يُفتح قبالة البحر

■■■

ما كلام تأخذه من ساحة الغرباء؟
ألم تبع عنب الأمس وعنب اليوم؟!
هذه بعض طمأنينة تركها ميّت وراء الباب
خذها وامضِ ولا تلتفت!

■■■

مجازك ارتوى من رمل الصحراء
افتح له نافذة أو
اتركه يأخذ طريقه إلى
سراب لا يشبه شيئاً!

■■■

هذه بوّابة لخيّالة الرئيس
هذه بوّابة لجند القائد
قفْ حيث أنتَ
حسبك حجر تحطّ عليه
أحلامك، حزنك، جوعك، وغفرانك

■■■

صخب وجلبة
لا شيء سوى صخب وجلبة
بيت يسكنه بائعو الخرز والعقيق

■■■

يتساقط المطر على سترة الشاعر
تقف الطيور على كتفي الشاعر
عزف ناي وصوت يصدح بالغناء الشجيّ
ينهض الشاعر يمشي على مهل
على مهل

■■■

اضطربت الأرض وانسابت الآلام
في عروق المدينة
كدرة صفحة السماء
كدرة صفحة الأرض
الكائنات تدخل التيه
واحدة
واحدة

■■■

أيّ قلبيك تريد يا رجل؟
ذاك الذي يفرح
بالحجر والمطر
بالرعد والبرق
بالليل والنهار
بقلادة عقيق في جيد صبيّة

(شاعر ومترجم من ليبيا)

من أوابد طرابلس في ليبيا (Getty)

متابعة

احتفاءً في اليوم العالمي لضحايا الاختفاء القسري

«ملك الثقوب» في طريقه إلى السقوط

الفنان السوري خالد ضوا يدمّر تمثال «ملك الثقوب» أمام مقرّ الأمم المتحدة بجنيف

> لم يتردّد خالد ضوا في تدمير تمثاله أمام مقرّ الأمم المتحدة، في إشارة إلى هشاشة نظام القمع، وتخاذل العالم مع الشعب السوري

جنيف ـ **العربي الجديد**

يعيش النحات السوري خالد ضوا في فرنسا منذ عام 2014، أي بعد ثلاث سنوات على اندلاع الثورة في بلاده. لكنّه في صباح يوم الجمعة الفائت، أي قبل أسبوع، كان في جنيف، تحديداً أمام مقرّ الأمم المتحدة، يحتفي بـ«اليوم الدولي لضحايا الاختفاء القسري»، الذي يصادف في الثلاثين من آب/ أغسطس من كل عام. أمام عمل بوزن حوالى سبعمائة كيلوغرام، وطول يبلغ أكثر من ثلاثة أمتار، وقف الفنان السوري مع أفراد عائلته أمام تمثاله «ملك الثقوب» الذي يصوّر حاكماً بجسد ضخم، يجلس على كرسي حكمه، وقد حمل كلّ واحد منهم مطرقة ومنشاراً، وراحوا جميعاً ينهالون بضرباتهم على الرأس والجسد الجالس على الكرسي، ثمّ على التمثال كلّه الذي يجسّد صورة الطاغية الذي تسبّب بالاختفاء القسري لمئات آلاف السوريين الذين خرجوا إلى الشوارع وطالبوا بكلمة ثقيلة الوقع على آذن أي حاكم طاغية في العالم العربي: الحرية.

أمام الكاميرات التي راحت تلتقط الواقعة، لم يتردّد الفنان في تدمير تمثاله، في إشارة إلى هشاشة الأنظمة المبنية على الظلم والعنف والقمع كلها. كذلك لم يتردد في سرد سيرته المريرة مع النظام الاستبدادي في بلاده، حيث عاش تجربة صعبة في سجونه، إذ تم احتجازه تعسفياً عام 2013، وعندما تم الإفراج عنه شعر أنّه يولد من جديد، لكنّه ظلّ يحمل معه سؤالاً ثقيلاً: ماذا عن الباقين؟ كان ضوا قد عرض منحوتة «ملك الثقوب»، المصنوعة من الخشب والجص والرغوة للمرّة الأولى عام 2021 في باريس، حيث يعيش، ثم تركها عمداً لتتدهور بشكل طبيعي لمدة عامين في غابة عامّة، وهدفه من ذلك تقويض الصلابة الواضحة لرمز القمع وإصابته بالضرر، والتأكيد على الوضع الطبيعي للأشياء هو الزوال، في إشارة إلى زوال نظام الطغيان. ورغم الموقع السلطويّ الذي يجسده جسد الحاكم الجالس على كرسي العرش، برأسه الكبير، إلّا أنه مع أول ضربة مطرقة تمزّق رأسه، وبدا جسده عرضةً للتشقّق، والانهيار، حيث تابع الفنان مع أفراد أسرته على تثقيب جسده، أو على نزع كتل منه، وكأنّ جسد الدكتاتور رديفٌ لسلطته ونظام حكمه اللذين يعيشان الانهيار، وهو انهيارٌ يصل مداه في حين نرى فيها التحلّل والتمزّق وقد نالا من جسد الدكتاتور، وذهبا بساقيه وجزءٍ من وجهه، في حين يبدو عرشه، المائل، في طريقه إلى السقوط، على وقع ضربات الفنان وأفراد عائلته.

ولم ينس ضوا أن يذكر أمام الكاميرات كيف تم هجر الشعب السوري مدة 13 عاماً، بدءاً من «المجتمع الدولي» وانتهاءً بمنظمة الأمم المتحدة وأنه إلى الآن لا يزال هناك ما يقارب 157 ألف شخص تم اعتقالهم تعسفياً في سورية، أو اختطفوا عند نقاط التفتيش أو من منازلهم وأماكن عملهم. يذكر أن خالد ضوا هو فنان سوري من مواليد عام 1985. يمكن وضع شغله الفني في ثلاث مراحل، الأولى من عام 2007 وحتى 2011، حيث كان يركّز على حالة «الانتظار»، وكيفية تعامل الأشخاص مع الانتظار الشخصي. أما المرحلة الثانية فبدأت من 2011 وحتى عام 2014، حيث اهتم بثيمة التظاهرة وهو فعل نقيض الانتظار، فبدأت منحوتاته تتجاوب مع الطاقة الجديدة التي عرفها الشارع. المرحلة الثالثة بدأت تتكوّن بعد انتقاله إلى باريس، ومآلات الثورة السورية، وتمظهرات العنف المختلفة، لذلك نراه يهتم بتمثيل الجسد الخائف والمعذب والذي شوّهته السلطة.

> عرض التمثال لأول مرّة بباريس عام 2021 وتركه عامين في غابة

فعاليات

حتى مساء بعد غدٍ السبت، تتواصل في «المركز الثقافي الدولي» بمدينة الحمامات التونسية النسخة الثانية من برنامج الإقامة **كتابات** التي افتتحت الاثنين الماضي. يشارك في البرنامج ستّة مشاريع أفلام روائية، منها: **تبر المخيم الأخير** لعماد مثناني، و**همسات مكتومة** لهبة الذوادي، و**متلازمة** لحسني بن عمر.

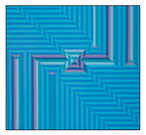

يُفتتح عند الحادية عشرة من صباح اليوم الخميس في «مؤسسة دلّول للفنون» ببيروت معرض **الحفر والطباعة** الذي يتواصل حتى الخامس من كانون الأول/ ديسمبر المقبل. يضم المعرض أعمالاً لفنانين عرب، منهم: **فريد بلكاهية**، و**كمال بُلّاطه** (الصورة)، و**مروان قصّاب باشي**، و**ضياء العزاوي**، و**مصطفى الحلاج**، و**سعيد بعلبكي**، و**سعاد العطار**، و**سميرة بدران**، وغيرهم.

ضمن فعاليات «العام الثقافي قطر - المغرب 2024»، تقيم «أوركسترا قطر الفلهارمونية»، عند السادسة من مساء الخميس المقبل، حفلاً في «مكتبة قطر الوطنية» بالدوحة بعنوان **موسيقى من قطر والمغرب**. تؤدّي الأوركسترا أغاني عدّة مثل **نداء الحسن**، و**كل شي فيك**، و**يا موجة غنّي**، و**الله يا مولانا**.

ينظّم «متحف فرويد» في لندن عند الواحدة والنصف من ظهر الخميس المقبل دورة افتراضية بعنوان **التحليل النفسي والفن**، يقدّمها أستاذ الفلسفة **كيث باريت**، وتستمر ليومين. تضيء الدورة كتابات فرويد عن دافنشي ومايكل أنجلو وغوته، وأفكار يونغ حول وظيفة الفن في العلاج النفسي والتصوّرات التي شهدتها في القرن الماضي.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي

نصوص الحياة والحرب من غزّة

معين شلولة شاعر

الحرب والثعبان

هي المرّة الأولى التي أمسك فيها ثعباناً، حدث هذا معي بالقرب من خيمة النزوح في أقصى جنوب مدينة خانيونس، إذ كنت أجلس تحت شجرة زيتونٍ عجوز شبه صفراء في «المواصي»، حين بَرز هذا الزاحف فاندفعت إليه بدون تفكير لأمسك بيدي اليمنى عنقه وبيدي اليسرى قبضت على جسده الطويل نسبياً لأدسّه في زجاجة بلاستيكية شفافة بحذر...

كان يجلس معي يومها الشاعر الشاب هاشم عبد الكريم الذي بهت من تصرّفي ببرود وهدوء خلال الموقف، لكنه سرعان ما عقّب على الأمر بتأكيده أن الحرب جعلت منا كيانات مفاجئة، من الطبيعي بموجبها أن نمسك بالنيران حتى، من دون أن نصرخ من سطوة لهبها.

لم أخبر هاشم حينها أنني هرعت في داخلي لنوبة استغراق عارمة، قوامها أنني أنظر لنفسي والكلّ في هذه الحرب كفريسة سهلة لهذا الثعبان وأشباهه، وأنني إن كنت قد أفلحت في تصرفي الدفاعي الغريزي تجاه هذا الغازي اللعين؛ فإن غزاةً كثراً ومتوالين علينا لدغونا وقتلونا من مختلف الجهات؛ بينما لا نملك إلا الموت والصراخ...

■■■

منذ بداية هذه الحرب ابتلينا بأفاعٍ طائرة، لديها في كلّ بخة سمّ قدرة على الفتك بمئات الضحايا دفعة واحدة، وأخرى تنال من جماداتنا طرقاً ومنازل ومباني خدمات وبيوت عبادة ومستشفيات، وأخرى لم نكن لنشاهدها وهي تجثم على أرواحنا من الداخل، وتذيقنا كل سموم اليأس والإحباط والكآبة والانسحاق في مواجهة ذلك كله، بينما لا نستطيع نحن ولا غيرنا في هذا العالم إمساك أي منها ووضعه في زجاجة بلاستيكية أو غيرها. وفي بداية هذه الحرب ووسطها ونهايتها غير المعلومة حتى اللحظة، ابتلينا بانعدام الترياق إزاء توالي اللدغات، وصرنا نتبادل وصفات بدائية للبقاء على قيد الحياة من دون أن نبتعد عن مؤشر استمرار النبض في أجسادنا المطفأة، والعالم كله يتصرف حيالنا كأنه يشاهد سيركاً أو مهرجاناً للحواة.

■■■

سألني هاشم عما أنوي فعله بالزاحف المحبوس في الزجاجة، قلت له: «إنني لا أعرف، لكننا على الأقل الآن في أمان، أنا وأنت وسكان خيمتي من أهل بيتي والخيام المجاورة، إن حجزه في هذه الزجاجة خطوة جيدة، وليتنا يا هاشم أوتينا عصا موسى لنلقيها في غزة فتلقف ما يأفكون. قال هاشم وهو شاخص: «يا إلهي يا عم، إن سموتيرتش وبن غفير، ينحدرون من معتقدات تراثية وبعض تخاريف، يظنون بموجبها أنهم من أتباع النبي موسى - عليه السلام - وبالتالي يعتقدون أن عصاه لهم وهم أولى بمنافعها»، انتبهت فعلاً إلى ما قاله هاشم ودقّة المفارقة التي أشار لها، واستشعرت قسوة وحمق وسخرية أن يؤسّس المعتدي وعيه على نرجسية اعتقادية مجنونة كهذه، رأينا تجلياتها وترجماتها القاتلة، وهي تذهب بنا مئات تلو مئات من الضحايا بدون أن يخجل القاتل أو يُحرج أو يخاف، خلال ثمانية أشهر قتلوا منا قرابة خمسين ألفاً أو يزيدون.

■■■

أحضر ابني محمد جده أبو عبد الدايم الذي يعيش في «المواصي» وولد فيها، دهشتهم واستغرابهم وردات فعلهم الاحتفالية المتشفية بثعبانٍ في زجاجة، لكن بعد مرور يومين أقنعَ الجد حفيده بوجوب قتل هذا السام، وبالفعل قتل أبو عبد الدايم الثعبان بضربة على رأسه، وحينها كنت أصلي ركعتي سُنّة صلاة الظهر، فسلَّمْتُ ونظرت للثعبان المقتول، ثم حملقت في السماء ودعوتها بصيغة السؤال «إلهي، متى تُحْبَسُ أفاعي الجو والأرض المنشورة فوقنا وحولنا؟! ومتى تُحَاكَم؟! ومتى تُعدم؟!»...

تذكَّرتُ على الفور أن محكمة لاهاي أصدرت لوائح اتهام ضد قادة الحرب في دولة الاحتلال، يتمّ بموجبها القبض عليهم وحبسهم في زجاجة، ثم تذكرت أيضاً أن واشنطن أقرّت عقوبات على محكمة لاهاي لأنها فعلت ذلك، نحن البشر مضحكون مثيرون للشفقة؛ إننا نعاقب المحكمة، هذا غير مستغرب على منطق المافيا التي قد تقتل قاضياً لأنه حكم على أحد عناصرها بأنه مجرم ويستحقّ الإعدام، لذلك لا أمل لدينا كفلسطينيين بعدالة العالم؛ رغم مفاجآته الإيجابية في هذا السياق أحياناً.

■■■

على ذات سجادة صلاة الظهر، انتبهتُ تارة أخرى إلى السماء، ومن جديد نظرت لجثمان الأفعى القتيل، وقلت للسماء «ليس سواك؛ قادر على حبس المعتدين علينا في زجاجة»...

ثم قمت وذهبت لأواصل جلوسي تحت شجرة الزيتون العجوز شبه الصفراء آملاً أن أستريح بظلها في ذروة حرارة شمس الحرب والظهيرة العابسة.

■■■

باغتني صوت «حسين» صاحب الأرض التي خيمنا فيها قائلاً: «شجرة الزيتون عندك تحتاج إلى زبل وماء لتخضرَّ من جديد، رغم أنها عجوز شبه صفراء؛ إلا أنه يمكن إنقاذها»، قلت له: «حسناً، ولكن خلال سقيها وتسميدها علينا أن نحذر من أفاع كهذا الممدّد بالقرب مني»... هزّ الرجل رأسهَ بالموافقة ومضى.

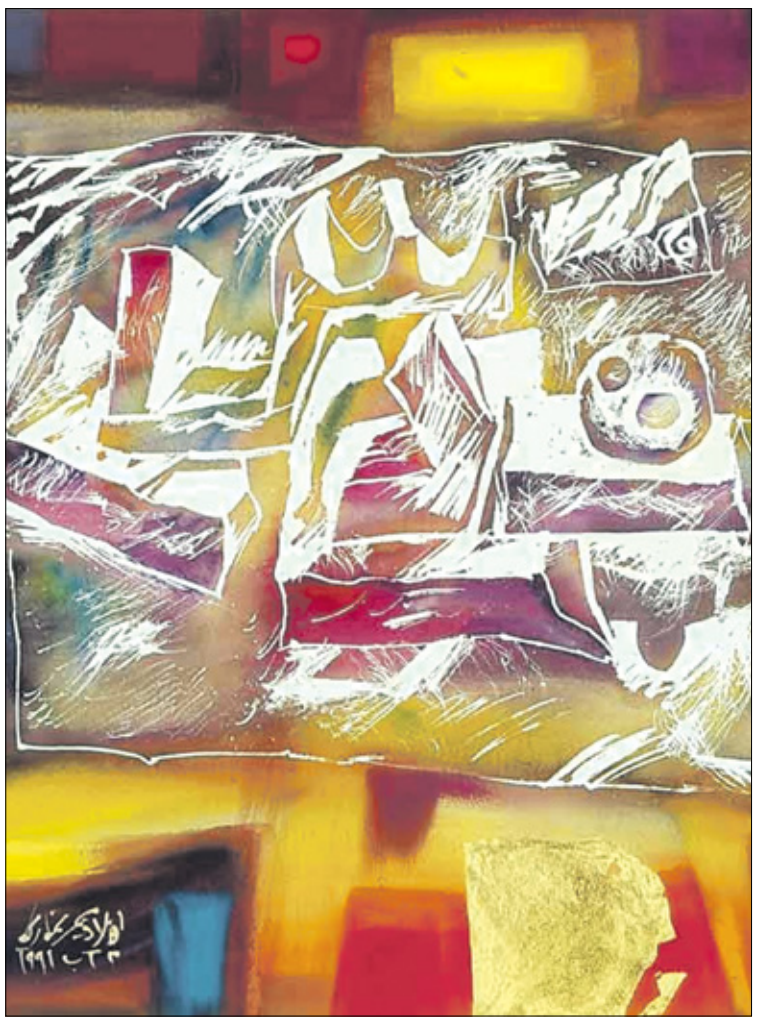

عمل للفنان الفلسطيني فلاديمير تماري

فأكّد لنا حين رأى الثعبان أنه ينحدر من نوع سام وخطير، مبدياً دهشته من قدرتي على الإمساك به بطريقة خبير، واستأذنني في أخذه وقتله، لكن هاشم اقترح -اقتراح شاعر- أن نطلق سراحه في مكان بعيد بدون أن نقتله، بينما طلب صغيري كنان أن نحتفظ به وأن أسمح له بأخذه للمباهاة به محبوساً في زجاجة البلاستيك أمام أطفال المنطقة والعالم، وتحت إلحاحه وضغطه الطفوليين أعطيته الزجاجة فعلاً وحذرته من فتحها، وصار كنان يتنقل ويتجوّل به أمام الأطفال وهم يبدون

ابتلينا بإنعدام الترياق إزاء توالي اللدغات، وصرنا نتبادل وصفات بدائية للبقاء على قيد الحياة

محمود روقة كاتب وسينمائي

يوم عرفة

صباح يوم جديد وما هو بجديد، فقد توالت المجازر ضدّ أحياء متفرقة على امتداد قطاع غزّة؛ في غزة وشمالها ومدن ومخيمات جنوب وادي غزة. مررتُ بمخيمات المهجرين -مراكز الإيواء- في حيّ البصّة بدير البلح حيث أسكن وعائلتي بعد أن نزحنا في بيت من بيوته، في بيت يقينا حرَّ الشمس الشديد ورطوبة الجو العالية فعلى مد البصر الخيام مختلفة أشكالها ومكوناتها عبارة عن لهب حارق، الناس كباراً وصغاراً لوّحتهم أشعة الشمس وشوهت وجوههم.

مخيم النخيل في شارع النخيل على اليمين وعلى اليسار، وخلف محطة عكيلة مخيم آخر بشارع السلام مخيم أبو عيسى، ومخيمات تنتشر على أيّ أرض يمكن أن تتسع ولو لخيمة واحدة...

سرتُ في الطريق البحري -شارع الرشيد- من دير البلح إلى مواصي خانيونس وصولاً إلى بيت ابن العم الحاج أبو السعيد لتقديم واجب العزاء بوفاة زوجته بعد ظهر هذا اليوم؛ إذ التقينا بجزء من العائلة والأقارب بعد مرور ثمانية أشهر ونيف هي زمن الحرب والنزوح التي ما زالت مستمرة، أينما رميت البصر خيام تصل إلى عشرات الآلاف كأنها غابات غربي شارع الرشيد وشرقه وزحمة الناس والسيارات والعربات التي تجرها الحمير والحُصن، وكلما مررنا بمحطات تحلية المياة نُعاني من أزمة السير؛ إذ أرى الناس بكل أعمارهم يحملون غالونات مياه الشرب، كلٌّ إلى خيمته.

■■■

نصل إلى بيت الأجر ونُؤدي واجب العزاء، نجلس ساعة زمن ونُودع الأهل عائدين، كانت طريق عودتنا إلى بيت نزوحنا في حيّ البصّة عبر خط سير مسجد القبة مروراً بمنطقة أصداء وأبراج مدينة حمد التي لم تسلم من الدمار على يد آلة الحرب الإسرائيلية طيلة حرب الإبادة الجماعية التي ترتكبها دولة الاحتلال الإسرائيلي وعبر بلدة القرارة غرباً ليس بمختلف عن الطريق الساحلية، أينما ولّيتَ وجهكَ ثمة عشرات آلاف خيام النازحين وعلى الطرقات خيام الباعة تعرض حاجيات الغذاء والشراب وما يحتاجه النازحون في مخيماتهم التعيسة.

يتصاعد دخان من بين الخيام في الأزقة الضيقة هناك من مواقد الطبخ، النسوة يطبخن ما تيسر من غذاء، معلّبات الفاصوليا والبازلاء والفول وغيرها، وهناك أفران صنعوها من الطين يخبزون فيها أرغفة الخبز بعد أن تعجن النسوة الدقيق في هذه الخيمة أو تلك، النسوة ماكينات متحركة في فضاء الخيمة وأمامها، ما بين الطبيخ والغسيل وإن شحّت المياه وزادت عذابات نقل مياه الشُرب والغسيل. أشاهد الصبيان يجمعون ما يقع تحت أيديهم من كرتون وورق وعيدان الشجر وأكياس النايلون ومخلّفات أخرى وكل شيء يصلح أن يكون وقوداً لنار الطهي والخبيز فقد منع الاحتلال إدخال غاز الطهي والوقود، وانتشرت أكوام الحطب والأخشاب المُكسَّرة على جنبات الطرقات تُباع بثلاثة شيكل للكيلوغرام.

■■■

ترى في المخيم ما يُحزن القلوب ويُبكي العيون، لهيب الخيمة والناس على أبواب فصل الصيف الحار، في داخل هذه الخيمة أو تلك امرأة عجوز وشيخ كبير يرعاهما أبناؤهما وبناتهما وهؤلاء يرعون صغارهم وعموم الأسرة، رب الأسرة يجري في مناكبها ليوفر قوت أسرته والزوجة تهتم بطبيخ وغسيل اليوم ورعاية الأطفال والأولاد، في المخيم كلٌّ في فلكٍ يسبحون. تنتشر أفران الخبيز التي صنعها أصحابها من الطين معجوناً بالتبن فتعطيها شدة وصلابة تتحمّل حرارة نار الحطب... يُذكرنا رغيف الخُبز المخبوز في هذه الأفران بسنوات النكبة الأولى في عام 1948.

■■■

مررنا بطريق وسطية من بلدة القرارة والتي لم تسلم كما كلّ مدن ومخيمات قطاع غزة من القصف والدمار، المباني المُدمّرة على اليمين والشمال فتُخبرنا حجارتها المدمرة عن أناس قُصفوا هنا فارتقوا شهداء إلى عليين في مجازر دامية ترتكبها دولة الاحتلال الإسرائيلي يومياً. سائق السيارة محمود ابن أخي يُزودنا بمعلومات لديه عما جرى في هذه المنطقة حين اجتاحها جيش الاحتلال وداستها دباباته في الاجتياح البري، آثار الدمار شاخصة للعيان. ندخل شارع البركة بدير البلح من جهة الجنوب وصولاً إلى دوار البركة وسط المدينة.

نحن الآن في السويعات الأخيرة لنهار يوم عرفة، فرغم أجواء حرب الإبادة الجماعية على قطاع غزّة إلّا أنّ زحمة السوق بائنة وأكثر ازدحاماً من أيام سابقة، الناس تبحث عما تيسر من حاجيات عيد الأضحى ولعلّها تعيش فرحة العيد لكن فرحته راحتْ غُباراً ودخاناً ودُفنتْ تحت ركام وأنقاض البيوت المقصوفة، ممزوجة بفراق الأحبة وعذابات هذه الحرب الظالمة على شعبنا في قطاع غزة.

نمشي كما السلحفاة في السوق الممتدة على طول شارع الشهداء -الشارع الرئيس- ضجيج العربات وبضع سيارات عالقة والناس مُكدسون على هذه البسطة وتلك هنا وهناك كأني في بحر هائج وصولاً إلى شارع السلام، سوق أخرى تتفرّع من الشارع الرئيس، زحمة في زحمة وصراخ في صراخ وصغار الباعة يُدللون على بضاعتهم...

■■■

أطلقتْ سيارة الإسعاف العنان لمُكبِّر الصوت وتوقفت مقابل مخيم عكيلة للنازحين خلف محطة عكيلة للبترول فإذا حالة ولادة، امرأة حامل يحملونها على الشيَّالة، تجمهر أطفال المخيم البؤساء وبعض المارة وفي عيونهم سؤال، ما الخطب ولماذا سيارة الإسعاف؟ ما أن بأن الحدث راح كلٌّ إلى غايته وانطلقتْ سيارة الإسعاف مُسرعة إلى المشفى، ولادة طفل في زمن الحرب والنزوح، أطفال كُثر ولِدوا وسط أزيز الرصاص وهدير الطائرات الحربية وهي تقصف بصواريخها المُدمرة هنا وهناك.

يصطف الناس في طابورين على الخبز أمام «مخبز البنا» في شارع عكيلة، الشباب والرجال في الطابور الأيمن والنسوة في الطابور الأيسر، داخل المبنى الكبير ثلاثة أفران أوتوماتيكية تعمل على الغاز والكهرباء من مولّد يعمل على وقود السولار، للأسف الشديد الفوضى سيدة الموقف! إذْ يحصل الواحد على ربطة خبز واحدة بشق الأنفس وهناك من يبيع الخبز في السوق السوداء بثمن أغلى! فوضى غريبة عجيبة!

تأخذني الطريق إلى شارع الرشيد غرباً مشياً على قدمي على موعدٍ مع شمس الأصيل الذاهبة خلف الأفق وخيوط الشمس مستلقية على لجة البحر تلمع كأنها الذهب. البحر صديقي الدائم منذ الطفولة في مُخيمنا الأول، مُخيم الشاطئ، سقى الله مخيمنا يوم كُنا أطفالاً نلعب على رمال شاطئه الذهبي نُداعب أصدافه الجميلة ونسبح في بحره.

■■■

تلك الذكريات تمحوها اليوم خيام البؤس على شاطئ بحر دير البلح، يسكنها الهاربون من لهيب القصف والدمار في زمن حرب الإبادة. تكاد الخيام تلامس موج البحر أو قُلْ: تغتسل في البحر!

ما إن ترفع مآذن ما تبقى من مساجد في دير البلح أذان المغرب ليوم وقفة عرفة وراحت تُكبّر تكبيرات عيد الأضحى المبارك الذي يُصادف غداً الأحد... عيدنا عودتنا إلى غزة وما بعد بعد غزة شمالاً شمالاً.

إن كُتبتْ لي الحياة فإلى يوم جديد.

السبت 15 حزيران/ يونيو 2024
(اليوم... 253)

عمل للفنانة الفلسطينية انصار بدير

ترى في المخيم ما يُحزن القلوب ويُبكي العيون... لهيب الخيمة والناس على أبواب فصل الصيف الحار